تاريخ استقبال المقال: 2015/11/07 تاريخ قبول نشر المقال: 2016/04/6 تاريخ نشر المقال:2016/06/01

إشكالية المنظور السياسي في تصور الدين وأثرها على مسيرة الدعوة أبو الأعلى المودودي نموذجا

د. عبد الباسط دردور

جامعة باتنة

ملخص:

يهدف هذا المقال إلى البحث في إشكالية استحداث تغييرات جذرية في هيكل الدين وجعل وجهته وجهة دنيوية محضة، وقد قدم الأستاذ المودودي هذا التصور للدين بصورة منظمة وخاصة في كتابه (المصطلحات الأربعة في القرآن الكريم) حيث غير مفاهيم الكلمات الأربعة (الإله– الرب– الدين–العبادة) وجعل مفاهيم السياسة والحكم، العماد والأساس في نطاق كل مصطلح، فأصل الألوهية وجوهرها عنده هو السلطة، أما الربوبية فهي مترادفة مع الحاكمية، والعبادة مأخوذة من تصور العبد الذي يخضع رأسه لسيده قبل أن يخضع قلبه، أما الدين فيقوم مقام نظام يتركب من الحاكمية والسلطة العليا، والطاعة والإذعان لها تحت منظومة فكرية وعملية معينة.ولا يتأتى الفهم الصحيح لهذه الإشكالية إلا من خلال فهم وظيفة الإنسان في الحياة الأرضية الذي يرتكز عليه هذا التصور، وأيضا من خلال الكشف عن أثر هذه الرؤية على مسيرة الدعوة سلبا من حيث التغيير في بنية العمل الدعوي من حيث الأهداف والغايات أو الوسائل والأساليب، بصورة قلما نرى لها مثيلا في تاريخ الفكر الإسلامي.

الكلمات المفتاحية: الإسلام السياسي، أبو الأعلى المودودي، حقيقة الدين.

A political perspective in the religious perceptionand its impact on the preaching process- A case study: Abû al-A'lâ al-Mawdûdî

Abstract :

This article focuses on the issue of introducing fundamental changes in the religious structure, solely through the spectrum of worldly life.

Professor al-Mawdûdî has presented this religious perception in an orderly fashion, especially in his book "Four basic Quranic terms", since he gave each of the four words "God, Lord, religion and worship" mainly a political and legal meaning. Thus, he explains the divinity and its essence by authority and power, and associates lordship with governance. As for worship, it is best represented, according to him, by the servant bowing his head before his master out of devotion and submission -even before his heart-. Finally, there is the religion who shall serve as a system combining governance and higher power as well as obedience and submission under a very specific intellectual and practical process.

Keywords: God, Lord, religion and worship, Professor al-Mawdûdî, Quranic terms.

مقدمة:

. إن الاختلال في التصورات الدينية رغم خطورته البالغة كانت من الظواهر التي لم يخل منها مجتمع من المجتمعات قديما وحديثا وإن كانت طبيعة هذا الاختلال اختلفت من دين إلى آخر ومن عصر إلى آخر، فقد كانت طبيعة الاختلال في نطاق الديانتين المسيحية واليهودية مما يمس صلب المعتقدات ونصوص الوحي المباشر وقد أشار القرآن إلى ذلك في عدة مواضع، أما الاختلال في إطار الديانة الإسلامية فلئن كان لا يحدث فيما يتصل بالمعتقدات الأساسية ونصوص الوحي بسبب تكفل الله بحفظ الوحي الخاتم، إلا أنه من الممكن حدوث ذلك في نطاق تفسير النصوص وتأويلها، فيكون هلاك هذه الأمة من حيث يتأولون القرآن على غير ما أنزل الله عز وجل بإعطاء الانقياد للنفس والهوى والأغراض، ويؤكد ذلك بروز كثير من التوجهات التي ستبتعد عما هو عليه النبي صلى الله عليه وسلم وصحابته في الفكر والمنهج ومسلك الحركة والعمل[1].

ومن المؤسف أن العصر الحديث شهد بروز عدد من التوجهات من هذا القبيل والتي منها ما يستند إلى منظور سياسي محض في تصور الدين والتعبير عنه، ذلك التوجه الذي ألحق ضررا كبيرا بالدعوة إلى الله، وأصبح يمثل مشكلة عويصة في سبيلها، مما يجعل تصنيف هذه المسألة على رأس قائمة المشكلات التي تواجهها الدعوة في الفكر الإسلامي المعاصر.

وقبل التفصيل في الحديث عن هذه الإشكالية يجب الحديث عن مسألة تعتبر من الركائز الأساسية التي يقوم عليها المنظور السياسي في تصور الدين، ألا وهي مسألة وظيفة الإنسان في هذه الحياة الدنيوية ومسؤوليته على هذا الكوكب الأرضي.

أولا: ما هي وظيفة الإنسان في الحياة الأرضية ؟

هذا السؤال يعتبر من تساؤلات الإنسان الكبرى التي شغلت كبريات العقول المتأملة والفلسفية قديما وحديثا، غير أن الله عز وجل نظرا إلى خطورة هذا الأمر قد تولى بنفسه الإجابة على هذا السؤال، حتى أنه جعل من هذه الإجابة نقطة ارتكاز خاصة في وحيه– القرآن الكريم – وجعل سائر تعاليمه الأخرى مما ينتظم في سلك هذه الإجابة، وفي الصفحات التالية سأحاول أولا توضيح هذه الإجابة من خلال نصوص القرآن الكريم لننطلق منها ثانيا فيما بعد إلى عرض المنظور السياسي للدين.

إذا استقرأنا الآيات القرآنية بحثا عن الإجابة الإلهية على السؤال المطروح فإننا نجد نوعين من الآيات:

الأول : تلك التي تتحدث عن السبب الذي خلق من أجله الإنسان و**الثاني** : تلك التي بينت مباشرة ما هي وظيفة الإنسان في الأرض، وكلا النوعين من الآيات وثيقة الصلة في الإجابة على السؤال. ففي إطار النوع الأول نقرأ قوله تعالى : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾[2] إن هذه الآية تدل دلالة محكمة على أن " العبادة " هي السبب الذي من أجله خلق الله الإنسان وجعل سلالته في الأرض.

ولكي يختبر الله البشر جعل لهم عمرا، وهي الفترة الزمنية التي تمتد من الميلاد إلى الوفاة، يقضيها الإنسان في قاعة اختبار مزودة بكل الوسائل والآليات التي سوف يحتاج إليها في هذه الفترة الاختبارية. هنا نقرأ النوع الثاني من الآيات يذكر بكل وضوح بأن طبيعة الوظيفة التي كلف بها كل إنسان هي أداء

اختبار الإيمان والعبودية في الحياة الأرضية، وقد دلت الآيات بأن علة وضع الإنسان في الحياة الأرضية هي الاختبار والامتحان[3]، فتكون وظيفة الانسان إذا في هذه الحياة هي إتمام هذا الاختبار، وجميع ما في هذا الكون إما أنه جعل ليساعد الإنسان في اجتياز اختباره أم أن بعضها يمثل وسائل الاختبار نفسه.

هذا هو الموقف الذي الواضح من خلال استقراء عدد من الآيات المحكمات وهو الموقف نفسه كان سائدا في عصر الصحابة والتابعين، ولم يحدث في الأمر من شيء إلا في عهد المعتزلة الذين قالوا بتعليل الأحكام التشريعية وفقا لمصالح العباد، ومن ثم أخرجوها من باب الابتلاء إلى باب المصالح ولم يلبث أن أثر رأي المعتزلة في كثير من الفقهاء المتأخرين، فذهب أكثرهم معهم في تعليل الأحكام[4] ولكن تعليلهم ذلك لم يقدمهم إلى تغيير نظرتهم تجاه الحياة الأرضية من حيث كونها مرحلة الاختبار والابتلاء، وقد ظل الأمر على هذه الوتيرة إلى أن جاء العصر الحديث الذي يشهد لأول مرة إبداعات بشرية ضخمة غير مسبوقة المثيل في مجال الاختراعات والصناعات والعلوم، فاختطف الأمر دهشة كثير من المفكرين المسلمين، وقد ساءهم أن يتخلف المسلمون عن الموكب وأن يتم هذا الإنجاز العمراني الضخم بأيادي أناس غير مسلمين، الأمر الذي قادهم إلى تأسيس نظريات وآراء بعيدة عن روح الإسلام، كل ذلك بغرض تحريض المسلمين على مشاركة هذا الموكب العمراني الحديث، وفي كنف هذه النظريات وتلك الآراء تغيرت حقيقة الأرض من كونها مجرد قاعة اختبار إلى كونها هي الغاية في حد ذاتها، وتحولت مسألة عمارة الأرض من كونها ذريعة اختبار إلى كونها هي الوظيفة الكبرى التي بسببها خلق الله الإنسان فيها[5] .

ثانيا: المنظور السياسي في تصور الدين

لم يتوقف الأمر إلى هذا الحد بل إن بعض المفكرين قد أحدثوا تغييرا جذريا في هيكل الدين وجعل وجهته وجهة دنيوية محضة لا هم لهم إلا الحكم على الجماعات البشرية لتستقيم حياتهم على أساس سياسي. فهذا الأستاذ أبو الأعلى المودودي قد صور الدين على أنه مجرد نظام دنيوي يسوس حياة الإنسان الأرضية على خير وجه، وقد حاول الأستاذ المودودي التأكيد على هذا النظام في كتبه المختلفة تأتي في طليعتها (نظرية الإسلام السياسية) و(نظرية الإسلام وهديه) و (موجز تاريخ تجديد الدين وإحياؤه) و (المصطلحات الأربعة في القرآن الكريم) . وخلاصة ما قال الأستاذ المودودي في هذه الكتب أن الدين مرادف للحكومة[6] وهو النظام الشامل والكامل للحياة[7] وأن الأنبياء كلهم بعثوا لتنفيذ هذا النظام عن طريق الاستيلاء على مقاليد الحكم والسياسة[8].

وقد قدم الأستاذ المودودي تصوره هذا بصورة منظمة في كتابه (المصطلحات الأربعة في القرآن الكريم). فقد غير في هذا الكتاب مفاهيم الكلمات الأربعة (الإله– الرب– الدين– العبادة) وجعل مفاهيم السياسة والحكم، العماد والأساس في نطاق كل مصطلح، فأصل الألوهية وجوهرها عند الأستاذ المودودي "هو السلطة [9] أما الربوبية فهي مترادفة مع الحاكمية والملكية[10] والعبادة بمعنى الخشوع والتذلل مأخوذة من تصور العبد الذي يخضع رأسه لسيده قبل أن يخضع قلبه[11] أما الدين فيقوم مقام نظام يتركب من أربعة أجزاء:

1- الحاكمية والسلطة العليا.
2- الطاعة والإذعان لتلك الحاكمية والسلطة .
3- النظام الفكري والعملي المتكون تحت سلطان تلك الحاكمية.
4- المكافأة التي تكافئها السلطة العليا على اتباع ذلك النظام والإخلاص له أو على التمرد عليه والعصيان له[12] .

بينما الصحيح في نطاق هذه المصطلحات هو كالآتي[13] :

ثالثا: تصويب المنظور السياسي في تصور الدين

1 – مصطلح الإلـه :

ليس جوهر هذا المصطلح وأصل معناه هو السلطة بل إن أصل معناه كما يقول ابن منظور : (أن الخلق يولهون إليه في حوائجهم ويضرعون إليه فيما يصيبهم ويفزعون إليه في كل ما ينوبهم كما يوله كل طفل إلى أمه)[14] ويقول الطبرسي : (ومنها أنه مشتق من قولهم : ألهت إلى فلان أي فزعت إليه، لأن الخلق يألهون إليه أي يفزعون إليه في حوائجهم)[15] (أله إذا تحير)[16] (ألهه أجاره وأمنه)[17] وعلى هذا الأساس يطلق مصطلح (الإله) على تلك الذات التي يتصورها الإنسان مختلفة عنه إلى حد الحيرة والدهشة، ويحسبها محيرة ومغيثة والتي يوله إليها بشوق ورغبة عظيمتين.

إن هذا التصور للألوهية يقتضي لزوما أن يكون ذلك الذي يتم إقراره (إلها) قادرا مقتدرا إذ كيف يتسنى له قضاء حوائج الناس واستجابة دعواتهم إذا كان لا يقدر على شيء . يقول ابن منظور : (لا يكون إلها حتى يكون معبودا وحتى يكون لعابده خالقا ورازقا ومدبرا وعليه مقتدرا، فمن لم يكن كذلك فليس بإله، وإن عبد ظلما)[18] والقرآن حين ينكر ألوهية الأصنام والأوثان تكون حجته الخاصة أن هذه الأشياء لا تملك القدرات والاختيارات التي تؤهلها لتكون آلهة[19] .

غير أن هذه الأمور كلها تدخل ضمن مقتضيات الألوهية، أي أن الألوهية تقتضي أن يكون الإله قادرا مقتدرا ذا سلطان، فليس من أصل معنى أله إذا (اقتدر) أو (تسلط) بل إن أصل معناه كما ذكرت سلفا . ثم إن مفهوم السلطة والاقتدار حين يقترن بلفظة (الإله) كإحدى مقتضياتها فإن ذلك لا يعني السلطة السياسية أبدا بل يعني سلطة الله الميتافيزيقية المتعلقة بتدبير الكون وتصريف آياته، هذا الذي تدل عليه جميع الآيات التي وردت فيها لفظة (الإله).

أما الآيات التي وردت في سياق إثبات ألوهية الله السياسية[20] من مثل قوله تعالى: ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا ۚ فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ [21] وقوله تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَٰهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَٰهٌ ۚ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ ﴾ [22] فهي لا تحمل مفهوم السلطة السياسية وإنما تدل على أن الله هو الإله الوحيد في هذا الكون الفسيح وأنه وحده يدبر الأمر وبيده كل شيء بالمفهوم الميتافيزيقي[23] .

2- مصطلح "الرب" :

ليس أصل معنى هذا المصطلح " هو الحاكم أو الملك " بل أصل معناه من التربية وهو: (تبليغ الشيء إلى كماله شيئا فشيئا)[24] وبما أن تبليغ الشيء إلى كماله شيئا فشيئا يقتضي أن يكون المنشئ والمربي ممن له القدرة وسلطان التصرف على الشيء الذي ينشئه وإلا كيف يتسنى له مثل هذا الإنشاء

والتربية لذا يقترن مصطلح الرب مفهوم السيادة والتملك والرئاسة بصفته مقتضى من مقتضيات المعنى الأصلي. غير أن اقتران هذه المفاهيم بمصطلح الرب لا يكون بالمعنى السياسي بل بالمعاني الميتافيزيقية أي أن الله عز وجل هو الذي أنشأ وينشئ الكائنات ويبلغهم حالا فحالا إلى حد التمام، وهو الذي بيده القدرة والسيادة والسلطة المطلقة للتصرف في شؤون الكون وأمور السماوات والأرض.

هذا ما يثبت من قراءة الآيات التي وردت فيها لفظة الرب، أما الآيات التي أوردت لإثبات المعاني السياسية في مصطلح الرب من مثل قوله تعالى: ﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ ۗ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ [25] فإنها لا تدل على شيء من ذلك . فالمقصود ب (الأمر) في قوله تعالى (ألا له الخلق والأمر) ليس لوائح وأحكاما سياسية بل المقصود به أمر الله المتعلق بتدبير الكون وتصريف الآيات [26] .

3 – مصطلح "العبادة" :

مصطلح العبادة ليس مشتقا من **العبد** الذي يخضع رأسه قبل أن يخضع قلبه بل أصل معناه كما قال أبو السعود : (أقصى غاية التذلل والخضوع)[27] والمقصود بالخضوع والتذلل هو ما يختلج في قلب الإنسان من شعور بالذلة والعجز، وعندما يشتد هذا الشعور ويبلغ أقصاه أمام ذات ما فذلك يسمى عبادة . ويتحقق أصل العبادة حتى في حالة عدم تحقق الطاعة الخارجية، وفي هذا يقول ابن سيده في المخصص : (وكل خضوع ليس فوقه خضوع فهو عبادة طاعة كان للمعبود أو غير طاعة)[28] وعلى هذا الأساس سمى رسول الله صلى الله عليه وسلم الدعاء، وهي ضراعة قلبية وأحاسيس داخلية يتوجه بها العبد إلى معبوده عبادة، مما يدل على أن أصل العبادة هو ما يحدث على مستوى القلب، والإنسان حين تتحقق على مستوى قلبه غاية الخضوع وأقصى التذلل لله رب العالمين فإنه لا يسعه من جراء ما يحس به إلا أن يرتمي أمامه راكعا ساجدا وينبغي مرضاته في كل لحظة وفي كل شيء من شؤون الحياة. فالطاعات الخارجية، ما هي إلا تعبيرات تلقائية ظاهرية عن عبادة داخلية. وقد حدد الله صورها وأشكالها أوقاتها.

هذه هي حقيقة العبادة والطاعة . أما أن نأتي فنجعل الإذعان الخارجي للقوانين والأحكام هو أصل العبادة، والخضوع والتذلل من مقتضياته فذلك ما لم ينزل الله به من سلطان، فالعبادة ليست الخضوع لمجموعة من اللوائح والأحكام السياسية الصادرة من حاكم سياسي معين بل هي الخضوع والتذلل لله رب العالمين، وإن كان هذا الخضوع والتذلل يقتضي أن يكون المؤمن مطيعا لله حتى في الحياة السياسية وما يتعلق بالشؤون الدولية.

4 –مصطلح الدين:

إن مصطلح (الدين) لا يرادف (النظام الحكومي) كما يذهب إليه المنظور السياسي، بل إن هذا التصور يجعل الدين مجرد أحكام سياسية ولوائح حكومية يطلب من الرعايا الالتزام بها، كما يجعل هذا التصور علاقة العابد بالمعبود مجرد رباط سياسي قانوني كالذي يكون بين الحاكم والمحكوم وبين العبد وسيده، مما يحول المسلمين إلى غثاء كغثاء السيل لا تخشع قلوبهم لذكر الله ولا تتجافى جنوبهم عن

المضاجع رغبة ورهبة لجبار السماوات والأرض. ولا تغمر قلوبهم مشاعر الذل والاستكانة والضراعة والإنابة والبكي لله سجدا وقياما.

فالدين في أصل معناه من الذل وهو ذل ليس كأي ذل، بل هو ذل أمام خالق السماوات والأرض الرؤوف الودود، لذلك تصحبه مشاعر الخوف والمحبة والولاء والتوكل، تلك المشاعر التي تجد طريقها إلى الخارج عبر الدعاء المخلص تارة، وفيضان الدموع تارة أخرى. وعبر عبادة الله كأننا نراه تارة والفرار إليه والالتجاء إليه في كل صغيرة وكبيرة تارة أخرى. عبر استباق الخيرات تارة والمبالغة في تنفيذ مرضاته والانتصار لأوامره وتشريعاته تارة أخرى.

وعندما رأى الأستاذ المودودي أن المنظور الجديد الذي أضفاه على هذه المصطلحات بغية تصوير الدين تصويرا سياسيا لا يوجد له تواصل تاريخي عبر تراث إسلامي ضخم منذ عهد التابعين إلى وقت ميلاد هذا المنظور على يديه، فلا أبو جعفر الطبري ولا ابن كثير ولا الزمخشري ولا بعض المفسرين الذين ولدوا قبل الأستاذ المودودي لا أحد منهم يذهب إلى هذا المنظور عند تفسيره لمئات الآيات التي تكررت فيها هذه المصطلحات، حتى مقولات المحدثين والفقهاء وسائر العلماء المسلمين في جميع التخصصات لا تدل على أنهم أدركوا هذا المنظور عند تناولهم لهذه المصطلحات.

عندما رأى الأستاذ المودودي هذا ولاحظ أن التراث الإسلامي الطويل لا مكان فيه لهذا المنظور أصبح يبرر بأن هذا المنظور هو الذي كان سائدا في عهد التنزيل: (ولكنه في القرون التي تلت ذلك العصر الزاهر جعلت تتبدل المعاني الأصلية الصحيحة لجميع تلك الكلمات، وتلك المعاني التي كانت شائعة بين القوم عصر نزول القرآن، حتى أخذت تضيق كل كلمة من تلكم الكلمات الأربع عما كانت تتسع له وتحيط به من قبل، وعادت منحصرة في معان ضيقة محددة، ومخصوصة، بمدلولات غامضة مستبهمة)[29] وقد أرجع ذلك إلى سببين :

الأول: قلة الذوق العربي السليم ونضوب معين العربية الخالصة في العصور المتأخرة – والمقصود بالعصور المتأخرة جميع العصور التي تلت عصر نزول القرآن.

الثاني: إن الذين ولدوا في المجتمع الإسلامي ونشئوا فيه، لم يكن قد بقي لهم من معاني كلمات (الإله) و(الرب) و(العبادة) و(الدين) ما كان شائعا في المجتمع الجاهلي وقت نزول القرآن، ولأجل هذين السببين أصبح اللغويون والمفسرون في العصور المتأخرة يشرحون أكثر كلمات القرآن في معاجم اللغة وكتب التفسير بالمعاني التي فهمها المتأخرون من المسلمين بدلا من معانيها اللغوية الأصلية"[30].

إن هذا التبرير الذي ذهب إليه الأستاذ المودودي ليضفي شرعية على المنظور الجديد الذي يقترحه للمصطلحات الأربعة لهو تبرير غريب من نوعه، إذ أنه يسلخ جميع العصور الإسلامية من الإيمان والعبادة والتدين. إذ أن الأمر لو كان كما يقول الأستاذ المودودي بأن (الذين ولدوا في المجتمع الإسلامي ونشئوا فيه لم يكن قد بقي لهم من معاني كلمات **الإله** و**الرب** و**العبادة** و**الدين** ما كان شائعا في المجتمع الجاهلي وقت نزول القرآن) فلو كان الأمر كذلك أفلا يعني هذا أن المسلمين جميعا الذين مروا طيلة أربعة عشر قرنا منذ عهد التابعين إلى عصر الأستاذ المودودي لم يكن أحد منهم مؤمنا بالإله وهو لا يفقه معاني كلمة الإله ؟ ولا أحد منهم عبدَ الله لأنه لم يكن قد بقي لهم من معاني كلمة **الرب** فكيف يتسنى الإخلاص للرب إذا كان أحد لا

يفقه ماذا يعني **الرب**، ولا أحد منهم عبدَ الله لأنه لم يكن قد بقي لهم من معاني كلمة **العبادة**، ولا أحد منهم تدين لأنه كان في جهل عن معاني الدين.[31]

وهل يعني هذا أن المسلمين جميعا الذين ماتوا خلال القرون الإسلامية الطويلة حتى عصر الأستاذ المودودي كلهم ماتوا على الشرك والوثنية واللادينية؟ نعم ربما كان الأمر هكذا على حد زعم الأستاذ المودودي كما تشير إليه عبارته التالية: (في الواقع أنه بغياب هذه المصطلحات الأربعة غاب عنا معظم تعاليم القرآن) وكانت النتيجة أن تعذر على الناس أن يدركوا حتى الغرض الحقيقي والمقصد الجوهري من دعوة القرآن فإذا دعاهم القرآن ألا يتخذوا من دون الله إلها، ظنوا أنهم وفوا مطالبة القرآن حقها لما تركوا الأصنام واعتزلوا الأوثان، والحال أنهم لا يزالون متشبثين بكل ما يسعه ويحيط به مفهوم **الإله** ما عدا الأوثان والأصنام، وهم لا يشعرون أنهم بعملهم ذلك قد اتخذوا غير الله آلهة، وإذا ناداهم القرآن أن الله تعالى هو الرب فلا تتخذوا من دونه ربا، قالوا ها نحن أولاء لا نعتقد من دون الله مربيا لنا ومتعهدا لأمرنا، وبذلك قد كملت عقيدتنا في باب التوحيد، والواقع أنه قد أذعن أكثرهم لربوبية غير الله من حيث المعاني الأخرى التي تطلق عليها كلمة **الرب** غير هذا المعنى–المربي– وإذا خاطبهم القرآن أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت، قالوا: لا نعبد الأوثان ونبغض الشيطان ونلعنه ولا نخشع إلا لله، فقد امتثلنا هذا الأمر القرآني أيضا امتثالا، والحال أنهم لا يزالون متمسكين بأذيال الطواغيت الأخرى غير الأصنام المنحوتة من الأحجار، وقد خصوا سائر ضروب العبادة – اللهم إلا التأله– لغير الله، وقل مثل ذلك في **الدين** فإنه لا يفهم من معنى إخلاص الدين لله تعالى غير أن ينتحل المرء ما يسمونه الديانة الإسلامية وألا يبقى في ملة الهنادك أو اليهود أو النصارى. ومن هنا يزعم كل من هو معدود من أهل الديانة الإسلامية أنه قد أخلص دينه لله والحق أن أغلبيتهم ممن لم يخلصوا دينهم لله تعالى من حيث المعاني الواسعة التي تشمل عليها كلمة **الدين**)[32] .

والحقيقة أن مثل هذه الاتهامات الموجهة إلى جميع العصور الإسلامية وخلو تراث الأمة بالكامل من التصورات التي توصل إليها الأستاذ المودودي حول هذه المصطلحات الأربعة يحمل دلالة واضحة على أن هذه التصورات هي محض ابتداع من قبل الأستاذ المودودي ولأول مرة في تاريخ الفكر الإسلامي، وأنها لم تكن موجودة أصلا في عهد التنزيل كما يرى الأستاذ المودودي، إذ إن هذه التصورات حول هذه المصطلحات الأربعة، التي هي أساس الأساسيات في حياة المؤمن لو كانت موجودة في عصر التنزيل لنقلها الصحابة إلى التابعين ثم هم بدورهم إلى أتباعهم وهكذا، ولكنا قد وجدناها مكتوبة في كتب اللغة والتفاسير، إذ إن هذه الكتب ليست عبارة عن آراء ارتآها أصحابها فحسب، بل هي أيضا نقل أمين للتوجيهات والتصورات السائدة في عهد التنزيل سواء منها ما كانت تتعلق بالمصطلحات اللغوية أو ما كانت تتصل بالمفاهيم الدينية.

ومما يدل على كون تلك التصورات من استحداث الأستاذ المودودي اعترافه الصريح بأنه كان يعرض هذه التصورات في مقالات عديدة، قبل تأليفه لكتاب (المصطلحات الأربعة في القرآن) من غير استشهاد بالقرآن ومن غير استناد إلى معاجم اللغة[33] ولكنه حين لاحظ أن الناس لا يوافقون رأيه المجرد من أدلة قرآنية ومعجمية أقبل على القرآن وعلى معاجم اللغة باحثا عن آيات تؤيده في رأيه وأقوال يستند إليها، يدل على هذا عبارته الصريحة التي قال فيها:(والظاهر أن رأيي الشخصي لا يمكن أن يقنع الذين لا يرون

رأيي ولا يوافقونني عليه على الأقل، فأردت في هذه الرسالة أن أبين المعاني الكاملة الشاملة لهذه المصطلحات الأربعة، من دون أن آتي في ذلك بقول لا يؤيده القرآن أو برأي لا يستند إلى معاجم اللغة) [34].

ترى ألا يشير هذا بكل وضوح بأن الأستاذ المودودي كون النظرية أولا ثم أسقطها على القرآن واللغة؟ إذ لو كانت نظريته نابعة عن دراسة القرآن واللغة لكنا قد وجدناها مدعمة بآيات قرآنية واستشهادات لغوية منذ أول بروزها، وبما أنها لم تكن كذلك فهذا يدل على أن القرآن واللغة أقحما عليها من بعد إقحاما، وحملا عليهما ما لا يحتملان. ويمكن لأي قارئ فطن اكتشاف هذا الإقحام من خلال كتابه (المصطلحات الأربعة).

أما الخطوات التي سار عليها الأستاذ المودودي في إثبات المعاني السياسية في محيط كل مصطلح، فهي أنه قام في البدء بوضع أصل الشيء ومقتضياته في سوية واحدة، ثم بإحلال المقتضيات محل الأصل وتفريع الأشياء الأخرى عنها، ثم في المرحلة الثالثة أبرز المقتضيات على أنها هي الدعوة الأصلية والأساسية للقرآن [35].

وفي إطار ما أسماه الأستاذ المودودي المعاني الشاملة لكل مصطلح، قام قبل تحديد حقيقة المصطلح وكنهه تجميع عدد من الآيات من مواضع متعددة ثم استدل بها على أن هذا المصطلح أو ذاك استعمل لهذه المعاني المتفرقة: **إله** لمعان خمسة، **والرب** لمعان خمسة، **والعبادة** لمعان ثلاثة، **والدين** لمعان أربعة، ثم استنتج منها معنى شاملا تجمع هذه المعاني المختلفة كلها [36].

ثم إن تجميع استخدامات مختلفة للفظة واحدة من سياق مختلف وصياغة مفهوم موحد من كل تلك الاستخدامات خطأ منهجي، إذ إن الألفاظ الدالة على أكثر من معنى لا تدل على كل تلك المعاني في آن واحد، بل إن دلالتها على هذا المعنى لا تدل على كل تلك المعاني في آن واحد، بل إن دلالتها على هذا المعنى أو ذاك تكون حسب السياق، أما إذا قام أحد بدمج كل تلك المعاني المختلفة في معنى واحد جديد، وأصبح يسميه معنى كاملا وشاملا للفظة بحيث كلما تطلق وفي أي سياق ترد فإنها ستدل على كل تلك المعاني المختلفة الكاملة الشاملة، فإن هذا العمل سيكون مرفوضا وفقا لمناهج اللغة وقواعد دلالة الألفاظ [37].

فبمثل هذه المناهج الخاطئة في التفكير بنى الأستاذ المودودي تصوراته عن المصطلحات الأربعة التي هي قوام الدين وأساسه، ثم أقام على هذا التصور الخاطئ صرح أفكاره، تلك الأفكار التي لقيت رواجا واسعا في أرجاء العالم الإسلامي، وبخاصة بعد ترجمة كتبه إلى مختلف اللغات، فتأثر بها الأجيال الإسلامية المعاصرة [38].

رابعا: أثر المنظور السياسي في تصور الدين على مسيرة الدعوة إلى الله.

إن المفهوم السياسي للدين الذي لقي رواجا بين الناس قد أثر على مسيرة الدعوة سلبا بصورة قلما نرى لها مثيلا في التاريخ، فقد غير هذا المفهوم كل شيء في بنية الدعوة، فلقد أصبح هدف الدعوة في نطاق المفهوم هو قلب الأنظمة الحاكمة[39] بدلا من تغيير القلوب وتطهيرها من أدران الشرك والوثنية والكفر و الإلحاد. أما الدعاة الذين تشبعوا بهذه الأفكار دون تمحيص أصبحوا يناطحون الحكام في كل مكان، حتى أصبحت الدعوة عنوانا للصراع السياسي والتنافس على الحكم، بل أصبحت عنوانا للإرهاب وسفك الدماء مما جعل الناس سواء أكانوا حكاما أم محكومين، على خيفة من الدعوة ومشتقاتها والدعاة وأتباعهم. والضحية الكبرى

في هذا الصدد هم غير المسلمين الذين أصبحوا في رهبة وتوجس دائمين من الإسلام لما يشاهدونه كل يوم من أحداث الدعوة الدامية.

والذي يزيد الطين بلة أن الشباب المسلمين الدارسين بالجامعات الغربية ينخرطون في سلك هذه التصورات السياسية والدموية ثم ينشطون لترجمة أعمال تتبنى هذه التصورات فيقومون بترويجها في الأسواق الغربية[40]، تلك الكتب التي يتلقفها الباحثون الغربيون ويستنبطون منها صورة الإسلام المشوهة فيقومون بواجب تحذير أبناء جنسهم عما يسمونه الخطر الإسلامي تحت عناوين مختلفة. وقد أدت جملة هذه الأمور إلى نفور غير المسلمين عن الإسلام والتوجس منه. وبذلك أصبح التصور السياسي الذي اخترعه الأستاذ المودودي للدين بمثابة صد الناس عن سبيل الله، سواء أكان ذلك فيما يتعلق بصرف الدعاة عن واجهة الدعوة إلى واجهة الحكم والسياسة، أم كان ذلك في إطار تنفير غير المسلمين عن الإسلام بشكل ما.

خاتمة:

من أهم النتائج التي وصلنا إليها من خلال هذا المقال:

1. إن علة وضع الإنسان في الحياة الأرضية، وغاية وجوده فيها هو الاختبار والامتحان والابتلاء.
2. إن بعض المفكرين في الفكر الإسلامي المعاصر قد أحدثوا تغييرا جذريا في هيكل الدين وجعل وجهته وجهة دنيوية محضة هدفهم استقامة الحياة على أساس سياسي ليس إلا.
3. الأستاذ أبو الأعلى المودودي قد صور الدين على أنه مجرد نظام دنيوي يسوس حياة الإنسان على خير وجه.
4. خلو تراث الأمة بالكامل من التصورات التي توصل إليها الأستاذ المودودي حول هذه المصطلحات الأربعة يحمل دلالة واضحة على أن هذه التصورات وجدت لأول مرة في تاريخ الفكر الإسلامي منذ عهد التنزيل.
5. الخطأ المنهجي الذي وقع فيه الأستاذ المودودي أنه كون النظرية أولا ثم أسقطها على القرآن واللغة؟
6. إن المفهوم السياسي للدين الذي لقي رواجا بين الناس قد أثر على مسيرة الدعوة سلبا بصورة قلما نرى لها مثيلا في تاريخ الفكر الإسلامي.
7. أدت جملة هذه التصورات الخاطئة إلى صرف الدعاة عن واجهة الدعوة والنفور من الإسلام والتوجس منه.

هوامش

[1] يدل عليه قوله صلى الله عليه وسلم : ((إن بني إسرائيل افترقت على اثنتين وسبعين فرقة وأنتم تفترقون على مثلها كلها في النار إلا فرقة)) مسند أحمد بن حنبل : رقم الحديث :11798، ج3، ص569 .

[2] ـ سورة الذاريات، الآية56 .

[3] ـ انظر الشاطبي، الموافقات في أصول الأحكام، دار الفكر، ج2، ص16.

[4] انظر: الشاطبي : الموافقات في أصول الأحكام، ج2، ص2 .

[5] انظر سعيد رمضان البوطي، منهج الحضارة الإنسانية في القرآن، دمشق دار الفكر، ص26،.

[6] انظر أبو الأعلى المودودي : المصطلحات الأربعة في القرآن، تعريب: محمد كاظم سباق، دمشق المطبعة الهاشمية، ص126-127.

[7] انظر المصدر السابق ،ص120 .

[8] انظر أبو الأعلى المودودي، موجز تاريخ الدين وإحياؤه، ص 41-42 .
[9] انظر أبو الأعلى المودودي، المصطلحات الأربعة في القرآن، ص22-23 .
[10] انظر المصدر السابق، ص93.
[11] المصدر السابق، ص97.
[12] المصدر السابق، ص120.
[13] في شبه القارة الهندية صدرت عشرات الكتب التي تناولت هذه المصطلحات الأربعة بالنقد والتحليل غير أن أشهرها هي الكتب التالية: التفسير السياسي للإسلام، لأبي الحسن علي الندوي؛ أبو الأعلى المودودي وشيء من حياته وأفكاره للشيخ يوسف بنوري ؛ وخطأ في التفسير لوحيد الدين خان. من أراد التفصيل فليرجع إليها.
[14] ـ ابن منظور : لسان العرب، بيروت، دار لسان العرب المجلد1، ص88.
[15] ـالطبرسي : مجمع البيان في تفسير القرآن: بيروت،دار مكتبة الحياة، ج1، ص41.
[16] ـ ابن منظور:لسان العرب،المجلد1، ص87 .
[17] ـ الفيروز آبادي: قاموس المحيط، بيروت، مؤسسة الرسالة، ط1/1986م، ص1603 .
[18] ـ ابن منظور لسان العرب، المجلد1، ص88.
[19] منها قوله تعالى: (يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ ۚ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ ۖ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ) سورة الحج الآية 73.
[20] انظر: أبو الأعلى المودودي: المصطلحات الأربعة في القرآن، ص 24-28.
[21] ـ سورة الأنبياء، الآية :22.
[22] ـ سورة الزخرف،الآية:84.
[23] انظر: ابن كثير: تفسير القرآن العظيم، ج 4، ص147. أما ما يتعلق بكون الإنسان ملزما للخضوع لتشريعات الله المتعلقة بأموره كلها بما فيه الحكم والسياسة فذلك أمر آخر.
[24] البيضاوي: تفسير البيضاوي، دار الكتب العلمية بيروت. ط1/1988م ج1، ص8.
[25] ـ سورة الأعراف، الآية:54 .
[26])انظر أبو الأعلى المودودي : المصطلحات الأربعة في القرآن، ص89 .
[27] أبو السعود : إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم ج 1، ص89.
[28] ابن سيده : المخصص، ، تحقيق لجنة إحياء التراث العربي، بيروت، دار الآفاق الجديدة، السفر 13، ص96.
[29] ـ أبو الأعلى المودودي : المصطلحات الأربعة في القرآن، ص9 .
[30] ـ المصدر السابق، ص9-10 .
[31] وحيد الدين خان، خطأ في التفسير، ص140.
[32] أبو الأعلى المودودي : المصطلحات الأربعة في القرآن :ص10-11 .
[33] ـ انظر المصدر السابق: ص12 .
[34] ـ أبو الأعلى المودودي : المصطلحات الأربعة في القرآن، ص12 .
[35] ـ انظر للتفصيل وحيد الدين خان : خطأ في التفسير، القاهرة، الرسالة للإعلام الدولي ط1/1992م، ص138.
[36] ليس من الخطأ، في حد ذاته، أن تبين جوانب عدة لشيء معين بتوزيعها إلى نقاط عدة غير أن الأمر نفسه يصبح خطأ عندما تغير الحيثيات والاعتبارات، فإذا قال قائل مثلا: (البيضة عبارة عن ثلاثة أشياء: الصفار والبياض والقشرة فإن قوله سيكون صحيحا من حيث التشريح الفني للبيضة، ولكنه لو أصبح يحدد القيمة الغذائية للبيضة على ضوء القول نفسه فإنه سيكون الخطأ عينه. إذ إن حقيقة البيضة من حيث الغذاء شيئان فقط: البياض والصفار، وما عدا ذلك فمتعلقاتهما). **انظر**: وحيد الدين خان : خطأ في التفسير، ص139
[37] على سبيل المثال وردت لفظة **الدين** لمعنى **القيامة** ووردت أيضا للدلالة على المعتقدات الأساسية فهل يجوز وفقا لقواعد اللغة أن أدمج هذين المعنيين وأقول بأن كلمة **الدين** كلما تطلق فإنها تدل على هذه المعاني الشاملة: وهل من أحد سيقول، على ضوء هذه المعاني الشاملة، في قوله تعالى: (أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ ۚ) بأن معناه : (أن أقيموا القيامة)
[38] انظر: محمد شمس الحق، الدعوة إلى الله، جمعية الدعوة الإسلامية، ص 123.
[39] انظر أبو الأعلى المودودي: موجز تاريخ تجديد الدين وإحيائه ..، ص142 .
[40] انظر مجلة الأمة: العدد31، السنة1 إبريل 1983، ص32؛ العدد62، السنة6، ص43 .